الفصل الثانى

فى أصول اللُّغة

- من نعم الله على خلقه فى نعمة الخلق .
- علم الأصوات ضرب فيه علماء المسلمين بسهم وافر .
- التجويد للقرآن الكريم أساس الصوتيات .
- ماهية الصوت ، وكيفية حدوثه .
- البيان النطقى والبيان الخطى .
- الإيجاد الخارجى فى خلق الإنسان والوجود العلمى الذهنى فى تعليم القرآن .
- لكل شىء أربعة وجودات :
  * خارجى فى الوجود فى الأعيان .
  * وعلمى فى الوجود فى الأذهان .
  * ولفظى فى الوجود فى المنطق واللسان .
  * ورسمى فى الخط والبيان .

obeikan.com

لابن القيم - رحمه الله - معلومات قيمة عن اللغويات ، أغرانى بتتبعها كتابه : « مفتاح دار السعادة » ، وخاصة ما يتعلق منها بـ « الصوتيات » فلم أجد البون شاسعًا ، ولا الفرق واسعًا بين معارفه وبين معارف المحدثين من «المختصين » فى هذا الفن اليوم ، مع ملاحظة أن وسائل الأقدمين كانت بسيطة ، أو بدائية ، ومقدراتهم المادية للبحث والمعرفة نادرة إذا ما قورن ذلك بما هيئ من وسائل البحث الحديث اليوم من منجزات هائلة ودفع قوى وعون دائم ، يعين على الابتكار ، ومواصلة البحث والتجربة بتعقل ؛ لأن المحنة اليوم فى جهود ترفض التطور إطلاقاً ، وبين تطرف يفضى إلى شر العواقب ، فبقيت الوسطية العاقلة . .

ولسنا بهذه النظرة نقلل من قيمة الدراسات الحديثة ، ولا جهود القائمين بها ، فذلك أمر تتطلبه روح العصر ، وتعين عليه منجزات التكنولوچيا ، ويفتح آفاقًا واسعة فى دنيا المعرفة والثقافة اليوم ، ويقتضيها طلبنا للرقى الحضارى فى شتى المجالات المعينة على النهوض .

وإنما قصدنا بهذه النظرة إبعاد شبح الانهزامية عن المسلم ، حتى يتمسك بتسلسل منطقى لإنشاء الحضارة ، بفكر القرآن والسنة واجتهادات أصيلة مبتكرة ، وتنقيتها مما تراكم حولها من سلبيات ، فتوحى بعد الغربلة الثقة فى نفس العربى والمسلم ، وينطلق من ضيق الأفق بسبب ماران عليه خلال عصور لم تكن فى صالحه ، ولا فى مقدوره أن يتخلص منها . . وعندما تبدأ ديناميكية الفكر عنده فى تنظيم دورتها وتتابعها . . يوم أن ينهض من جديد بفكر وعمل خلاق ، يصل به ما بدأ به أجداده ، وما يوحيه إليه إسلامه ، وبدلاً من التسول العلمى على موائد من نهضوا بمعارفنا ، سنصبح من جديد قبلة للعلم والعلماء . . وسيعلم أبناؤنا بالتالى أن بضاعتنا شرِّقت وغرِّبت ، ولكنها - والحمد لله - عادت وردت إلينا . . فترد إلينا الروح وترجع لنا الثقة .

ففى هذه الجزئية التى نتناولها اليوم تتنوع جهود المؤلفين العصريين : منهم

من يقتبس من جهود الأقدمين ، بغير ما إشارة إلى المرجع ، وبخاصة ما ألف في العصور المتأخرة أو المظلمة كما نسميها . . وفى هذا ما فيه من الافتئات والغبن ، ولا عاصم منه إلا تحكيم الضمير ، والحس العلمى الحى .

وآخرون يؤلفون مقتدين بالغرب ومدارسه ، معجبين ومؤيدين ، ولا إشارة من قريب أو من بعيد ، لصنيع أجدادنا وعلمائنا القدامى ، ممن أفنوا عمرهم فى خدمة العربية والإسلام . . وهذا انسلاخ أو مسخ لا يرضاه عالم . فإن كان الأمر جديدًا فالعلم تركة موزعة بين أذكياء البشرية . . وإن أرسى علماؤنا قواعده ، وأسهموا فى إيجاده فأبسط حقوقهم أن يشار إلى عملهم ، وأن يشاد بفضلهم وجهدهم ، وتلك خلة محمودة : توحى بالثقة ، وتغرس الأمل ، وتغرى بمواصلة البحث والتقدم .

ولا يوافق عاقل أن تتوالى كتب الأبحاث اللغوية وما يتصل بها ، خلوا من الإشارة إلى ما قدمنا فى هذا المجال مما خلفه لنا تراثنا بدءًا بالعبقرى الخليل بن أحمد ، وسيبويه ، ومرورًا بالخالدين (ابن جنى) ، و(الفارسى) ، و(الجرجانى) ، وغيرهم من عباقرة العرب والمسلمين . .

ومن ثَمَّ فقد تهللت لبادرة الأستاذ الدكتور : أحمد مختار عمر فى كتابه : (البحث اللغوى عند العرب) . . وحبذا لو توالت الأبحاث على هذا المنوال ترتكز على الأسس العتيقة وترفدها الدراسات الحديثة . . فيكون من هذا وذاك وقود النهضة الواعية الصاعدة ، بما يربطنا بماض مجيد أسهم فيه ابن القيم برسالته (أسباب حدوث الحروف) ، وابن جنى فى (سر الصناعة) ، وابن سنان الخفاجى فى (سر الفصاحة) ، وواكبهم علماء البلاغة والبيان .

* *

يقول أستاذنا الدكتور الشيخ : إبراهيم محمد نجا - رحمه الله - :

. . وقد كان للعرب فضل كبير فى هذه المباحث الطبيعية (مباحث علوم اللغة) ، فأجروا التجارب التى مكنتهم من أن يستنبطوا على ضوئها حقائق كثيرة :

فقد ابتكروا كثيرًا من الآلات الموسيقية ، كالأرغون ، والرق ، والطبلة ، والقيثارة ، والطنبور ، والعود . . إلخ .

ويقول أيضًا :

ومن هنا نستطيع أن نقول : إنه لا غنى لدارس « علم الأصوات » عن الإلمام بالمبادئ الطبيعية التى تساعده على التعرف على أعضاء النطق ، وعن الإلمام بالمبادئ الاجتماعية ؛ لتعرف الأُسس التى قامت عليها دلالة الألفاظ : كدراسة النواحى الجغرافية ، والفلسفية والنفسية . . .

والعرب هم أول أمة عنيت بهذه الدراسة ، هادفين إلى ضبط القرآن الكريم ، والاهتمام بتلاوته ، ولذلك أطلقوا على هذه الدراسة : (تجويد القرآن) أ هـ .

فهذا اللون من الدراسة وإن أصبح له فى دنيا الغرب الشأن الكبير ، وأفردت له الأقسام وخصصت له المعامل ، وأجريت عليه التجارب . . إلا أن للعرب فى هذا الميدان فضل السبق . . ومن واجبنا اللحاق بالركب : حفاظًا على لغة القرآن ، وبيان فضلها وميزاتها ، وتحقيقًا لما جد ويجد من نفع فى دراسة هذا اللون فى ميادينه المختلفة ؛ لأن الإلغاء الفج كلية لمثل هذه الدراسة تخلف حضارى لا شك فى ذلك . . كما أن الاكتفاء بالقشور قصور علمى . . لا يغنى ولا يسمن من جوع .

* *

* وقد حسدنا الغرب على الأصول التى وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدى (٩٩ هـ) لعلم الموسيقى ، ولم يكن هاويًا ولا محترفًا . . ولم يضرب على آلة قط . .

* كما قد حسدونا على اختراع علم (التجويد) ، وضبط الألفاظ وطريقة نطقها ، بما حفظ لنا وللأجيال من بعدنا الطريقة الصحيحة لنطق القرآن الكريم ، كما أنزله الله تعالى إلى نبينا محمد ﷺ ، وعلمنا بالتالى كيف ننطق اللغة العربية التى هى وعاء الوحى .

* *

* وهذه مقتطفات مما لاحظته فى كتاب (مفتاح دار السعادة) ، لابن القيم - رحمه الله - ، فى هذا الصدد ، أسوقها بتعليق خفيف ، وأقارنها بسرعة بغيرها ، ليتبين الفضل والعلم .

* كان ملحظ علمائنا الأوائل دينيًا فى كل معارفهم ، بمعنى : أن الله تعالى كان قبلتهم فى كل شىء ، يقول الإمام ابن قيم الجوزية :

(خلق الله - سبحانه - الأذن أحس خلقة وأبلغها فى حصول المقصود منها، فجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت ، فتؤديه إلى الصماخ ، وليحس بدبيب الحيوان فيها ، فيبادر إلى إخراجه .

وجعل فيها غضونًا وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حدته ، ثم تؤديه إلى الصماخ . . .) .

* ويشير إلى حكمة الله تعالى فى أن جعل للإنسان حاستين وعضوين كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعددهما : فإنه ربما أصيبت إحداهما أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها ، فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل منفعة هذا الحس جملة ، وكان وجود أنفين فى الوجه شيئًا غير سوى ، فنصب فيه أنفًا واحدًا ، وجعل فيه منفذين حجز بينهما بحاجز يجرى مجرى تعدد العينين والأذنين فى المنفعة وهو واحد ، فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين .

* ويقول : جعل الله - سبحانه - فى الحلق منفذين : أحدهما للصوت والنفس الواصل إلى الرئة ، والآخر ، للطعام والشراب وهو المرىء الواصل إلى المعدة ، وجعل بينهما حاجزًا يمنع عبور أحدهما فى طريق الآخر ، منعًا للهلاك لو وصل الطعام من منفذ النفس .

* وجعل داخل الأذن مستويًا كهيئة الكوكب ؛ ليطرد فيه الصوت حتى ينتهى إلى السمع الداخلى وقد انكسرت حدة الهواء فلا ينكؤه .

فقد لحظ ابن القيم أن تجويف الأذن تكفل بحفظها حين نشعر بالخطر ، وأن

التجاويف تمسك الهواء والصوت حتى يصل إلى الصماخ فى رفق . . وأن تكرار الأذن فيه جمال واحتياط ، وكذلك العينان . . وقام منفذ الأنف مقامهما بما تركب فيه من حاجز ، وفى الحلق منفذان يحجز بينهما ليقوم كل منهما بما نيط من مهمات حيوية ، وبما يضمن السلامة للإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم .

* *

* ويعمم ابن القيم فى حديثه ، ثم يخصص زيادة فى البيان : فيذكر ما أودع الله تعالى فى الرأس - كأشرف مكان فى الإنسان - وما أودعه الله فيه من آلات تعين على استمرارية الحياة من جهة ، وتعين على الاختيار والتذوق لتفضيل المناسب والأليق ، ثم تودى بالتالى نعمة الكلام والبيان ، مع الإشارة إلى الاتصال بينها وبين بعضها فى تناسق وترابط يشير إلى قدرة الخالق والمنعم، ويذكر العبد بنعم المتفضل سبحانه . .

* ولأن اللسان أخطر الأعضاء من جهة وأجلها من ناحية أخرى ، وحتى فى تخصيص مكانه وستره ، فضلاً عن لطافته وحاجته إلى الرطوبة لتأدية وظيفته المزدوجة على نحو مرض وفعال . . كان فى داخل الفم لا خارجه . . ثم ما أحيط به من أسنان وشفاه . . وكانت بدايته فى أقصاه لا فى طرفه . .

وكيف كان اختلاف الحناجر معجزة فى عدم تشابه الأصوات ، مما أشبه اختلاف البصمات . .

وكان اختلاف الأصوات سببًا فى حفظ الحقوق والعدل حين أباح العلماء للأعمى الشهادة ؛ لأنه يميز بين الأصوات المختلفة ، فلا تستعصى عليه الشهادة . . تمكينًا للعدالة فى دنيا الإنسان . .

يقول - رحمه الله - فى معرض الرد على الدهريين ، والطبيعيين ، ممن نسميهم اليوم بالماديين والملحدين :

شق للعبد الفم فى أحسن موضع ، وأليقه به ، وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام ، وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه ، فأودعه اللسان الذى هو إحدى آياته الدالة عليه ، وجعله ترجمانًا لملك الأعضاء ، مبينًا ، مؤديًا عنه .

كما جعل الأذن رسولاً مؤديًا مبلغًا إليه ، فهى رسوله وبريده الذى يؤدى إليه الأخبار ، واللسان بريده ورسوله الذى يؤدى عنه ما يريد) .

* *

* وعن وظيفة اللسان ، ومكانه ومكانته ، وما أحيط به للحفظ والزينة والإعانة على أداء وظيفته ، يقول :

(واقتضت حكمته سبحانه ، أن جعل هذا الرسول مصونًا محفوظًا مستورًا غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف ؛ لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدى من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ، ولما كان اللسان مؤدياً منه إلى الخارج جعل له سترًا مصونًا لعدم الفائدة فى إبرازه ؛ لأنه لا يأخذ من الخارج إلى القلب ، وأيضًا : فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ، ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره .. ضرب عليه سرادق تستره وتصونه ، وجعله فى ذلك السرادق كالقلب فى الصدر .

وأيضًا : فإنه من ألطف الأعضاء وألينها ، وأشدها رطوبة ، وهو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به ؛ فلو كان بارزًا صار عرضة للحرارة واليبوسة والنشاف المانع له من التصرف ، ولغير ذلك من الحكم والفوائد .

* ثم زين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان ، التى هى جمال له وزينة ، وبها قوام العبد وغذاؤه .. متناسقة الترتيب ، كأنها الدر المنظوم ..

وأحاط - سبحانه - على ذلك حائطين ، وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما ، وهما الشفتان .. وجعلهما إتمامًا لمخارج حروف الكلام ونهاية له .

كما جعل أقصى الحلق بداية له ، واللسان وما جاوره وسطًا ، ولهذا كان أكثر العمل فيها له ؛ إذ هو الواسطة .

وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة ، والخشونة والملاسة ، والصلابة واللين ، والطول والقصر ، فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ، ولا يكاد يشتبه صوتان إلا نادرًا . ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى ؛ لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم ، كما يميز البصير بينهم بصورهم ، والاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصور .

* *

* ولو تأملنا براعة الإمام السكاكى فى توزيع الحروف الأبجدية بين أعضء النطق ، فى رسم لا يختلف كثيرًا عن رسومات المحدثين ، بما حباهم به العصر من منجزات التكنولوچيا المعاصرة . . لازداد إكبارنا لعلمائنا القدامى ولشعرنا بالتفوق . .

واليوم إذا كان عصر التقدم ، التكنولوچى - على منجزاته الهائلة - عاجزًا عن التشريح الدقيق وبيان الوظائف التفصيلية أو شبهها للمخ ، وكيفية عمله . وللإمام ابن قيم الجوزية إشارات مقتضية إلى هذا الجانب ، حين يقول :

(ومن عجائب خلقه : أنه جعل فى الرأس ثلاث خزائن نافذًا بعضها إلى بعض : خزانة فى مقدمه ، وخزانة فى وسطه ، وخزانة فى آخره ، وأودع تلك الخزائن من أسراره ما أودعها ، من الذكر ، والفكر ، والتعقل) .

ولذا نجد بعض العلماء المعاصرين ، يتعرض لأعضاء النطق بالدراسة التفصيلية ، ما عدا (المخ) ، ويصرح بأنه لن يتعرض له بشىء من التفصيل لدقة تشريحه ، فضلاً عن أن التشريح لم يصل بعد لتعرف شأنه تعرفًا تامًا .

* *

* ويجعل ابن قيم الجوزية التفكر فى مكان يفضل العبادة ؛ لما ورد فى

الآثار ، ولأن الفكرة مخ العقل ، وعبادة الصالحين ، ولذا صرف المتكبرون عن التفكر فى آيات الله : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِى الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (١) .

ويفرق بين التذكر والتفكر : بأن الأول يثبت فى القلب ما عرف بالتكرار ، والتفكر يكثر العلم ويستجلب ما ليس حاصلاً : فالفكر يحصله ، والتذكر يحفظه ، ولهذا قال الحسن : (ما زال أهل العلم يغدون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة) .

فالتفكر والتذكر بذار العلم ، وسقيه مطارحته ، ومذاكرته تلقيحه . . . حتى يقرر أن أصل كل طاعة إنما هى الفكر ، وأصل كل معصية من جانب الفكرة حين يصادف الشيطان أرض القلب خالية فارغة ، فيبذر فيها حب الأفكار الرديئة .

* ويتعرض إلى الحديث عما فى داخل الإنسان مما لا نشاهده ، كالقلب والكبد والطحال والرئة . . ويتحدث عن بعض وظائفها ، مستدلاً بذلك على عجائب خلق الله سبحانه ، ويجعل القلب ملكًا يستعمل جميع آلات البدن ، وكلها خادمة له ؛ لأنه أشرفها ، وبه قوام الحياة ، والغرائز ، والصفات ، ولذا فالعين طليعته ورائده ، واللسن ترجمانه المؤدى للسمع ما فيه ، ومن ثم فكثيرًا ما قرن المولى سبحانه الثلاثة ، كما فى قوله : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (٢) ، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٤) .

وبالجملة فسائر الأعضاء خدمه وجنوده .

وقال النبى ﷺ : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهى القلب »

---

(١) الأعراف : ١٤٦ (٢) الإسراء : ٣٦

(٣) الأحقاف : ٢٦ (٤) البقرة : ١٨

ولله در الشاعر حيث يقول :

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

* *

* ويذكر الإنسان بمنافع أعضائه :

فالعينان :للاهتداء والجمال والزينة والملاحة ، ورؤية ما فى السموات والأرض وعجائبهما .

والفم : للغذاء والجمال وغير ذلك .

والأنف : للنفس ، وإخراج فضلات الدماغ ، وزينة الوجه .

واللسان : للبيان والترجمة عنك .

والأذنان : صاحبتا الأخبار تؤديانها إليك .

واللسان : يبلغ عنك . .

* *

* وهو حريص على بيان حكمة الله فى جعل الحواس الخمس للإنسان فى أشرف مكان ، يقول :

وانظر إلى الحواس التى منها تشرف على الأشياء ، كيف جعلها الله فى الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتتمكن بها من مطالعة الأشياء ، ولم تجعل فى الأعضاء التى تمتهن كاليدين والرجلين ، فتعرض للآفات بمباشرة الأعمال والحركات . . وحتى تتمكن من أداء رسالتها بيسر : (كان الرأس أليق موضع بها وأجملها : فالرأس صومعة الحواس) .

* *

* ثم يذكر الحكمة فى عدد الحواس ، فيقول : جعل الحواس خمسًا فى مقابلة المحسوسات الخمس : ليلقى خمسًا بخمس ، كى لا يبقى شىء من المحسوسات لا يناله بحاسة :

فجعل البصر فى مقابلة المبصرات ، والسمع فى مقابلة الأصوات ، والشم فى مقابلة أنواع الروائح المختلفات . والذوق فى مقابلة الكيفيات المذوقات ، واللمس ، فى مقابلة الملموسات .

فأى محسوس بقى بلا حاسة ؟ ولو كان فى المحسوسات شىء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة . .

* ولما كان ما عداها إنما يدرك بالباطن أعطاك الحواس الباطنة ، وهى هذه الأخماس التى جرت عليها ألسنة لعامة والخاصة ، حيث يقولون : للمتفكر المتأمل : ضرب أخماسه فى أسداسه : أى حواسه الخمس فى جهاته الست ، وأرادوا أنه جذبه القلب ، وسار به فى الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس فى جهاته الست ، وضربها فيها لشدة فكره .

فذكر الحواس الخمس الظاهرة ، ثم أشار إلى الحواس الباطنة ، وبذلك لا يستدرك عليه .

* وهذه الحواس لا تعمل إلا بوسائط ووسائل ، تمكنها من أداء رسالتها ، لا شك فى ذلك ، يقول :

ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات أخرى منفصلة عنها ، تكون واسعة فى إحساسها :

فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع ، فلولاه لم ينتفع الناظر ببصره ، فلو منع الضياء والشعاع لم تنفع العين شيئًا .

وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات فى الجو ، ثم يلقيها إلى الأذن فتحويه ، ثم تصله إلى القوة السامعة ، ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئًا .

وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللصيف يحمل الرائحة ثم يؤديها إليها فتدركها فلولا هو لم تشم شيئًا .

وأعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل فى الفم ، تدرك القوة الذائقة به طعوم الأشياء ، ولهذا لم يكن له طعم لا حلو ولا حامض ، ولا مالح ولا حريف؛ لأنه كان يحيل تلك الطعوم إلى طعمه ولا يحصل به مقصوده .

وأعينت حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ، ولم تحتج إلى شىء من خارجها ، بخلاف غيرها من الحواس ، بل تدرك الملموسات بلا واسطة بينها وبينها ؛ لأنها إنما تدركها بالاجتماع والملامسة ، فلم تحتج إلى واسطة أ . هـ .

فضرورة الضياء لضرورة الإبصار ، وإلا لما تم المطلوب ، ولهواء ضرورى لحمل الأصوات ، بينما النسيم العليل يمكن الشم من أداء مهمته ، وكان اللعاب فى الفم لإدراك المذوقات ، وترطيب اللسان ، بينما حاسة اللمس لها اكتفاء ذاتى حين تقوم بمهماتها .

* *

ويقرر باحثو علم اللغة حديثا أن أعضاء النطق فى الإنسان لم تكن خاصة بالنطق والكلام ووقفًا عليه . . بل لها منافع وميزات أخرى متعددة متنوعة ، وهذا ما أشار إليه ابن قيم الجوزية . حيث يقول :

وفى هذه الآلات مآرب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام :

ففى الحنجرة مسلك النسيم البارد الذى يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع .

وفى اللسان منفعة الذوق فتذاق به الطعوم ، وتدرك به لذتها ، ويميز به بينها ، فيعرف حقيقة كل واحد منها ، وفيه مع ذلك معونة على إساغة الطعام، وأن يلوكه ويقلبه حتى يسهل مسلكه فى الحلق .

وفى الأسنان من المنافع ما هو معلوم ، وإسناد الشفتين ، وإمساكها عن الاسترخاء ، وتشويه الصورة .

وفى الشفتين منافع عديدة يرشف بها الشراب ، حتى يكون الداخل منه إلى حلقه بقدر ، فلا يشرق به الشارب ، ثم هما باب مغلق على الفم الذى ينتهى إليه ما يخرج من الجوف ، ومنه يبتدئ ما يلج فيه ، فهما غطاء وطابق عليه ، يفتحهما البواب متى شاء ويغلقهما إذا شاء .

وهما أيضًا جمال وزينة للوجه وفيهما منافع أخرى سوى ذلك .

وقد بان لك أن كل واحد من هذه الأعضاء ينصرف إلى وجوه شتى من المنافع والمآرب والمصالح : كما تتصرف الأداة الواحدة فى أعمال شتى . .

ثم يعترف بأن فى تركيب العقل ، وصيانته ، وعمله . . ما يحير الألباب والعقول ، وصدق الله : ﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

* *

* والمحدثون من علمائنا ، ما زالوا يقولون فى مثل هذه الدراسات :

إن الجهاز الصوتى عند الإنسان بالغ حد الروعة ، لما فيه من مرونة عجيبة : فقد تهيأ للإنسان بتلك المرونة إخراج عدد لا يحصى من الأصوات ، وإن هذا الجهاز لم يكن فى أصل خلقه لإصدار الأصوات ، وإنما كان لكل جزء مهام أخرى : كالتذوق بالنسبة للسان ، والمضغ للأسنان ، والشم للأنف ، وهكذا . . .

ولكن عزى إليها الكلام لأهميته .

وقد لا يقدر الإنسان نعم الله عليه حق قدرها ، ولا يعرف أهميتها مع تمتعه بها ، بيد أنه إذا أصابها عطب أو تعطلت عن القيام بواجبها - فإن شعوره بالحسرة على فقدها يتضاعف . . بل إن الشعور بالألم يضاعف الآلام أكثر مما

---

(١) الذاريات : ٢٠ ، ٢١

يحسه الإنسان ، إذا تخيل أنه فاقد لحاسة من حواسه ، أو حرم من نعمتها بعد الإنعام بها .

ولذلك يضع ابن القيم أمام الأنظار . . ما يعظم لدى الإنسان نعمه عليه من المنعم . . ويقارن بين المصائب والعلل : أيها أكثر ضررًا وأشد تعويقًا للإنسان . . وبخاصة فيما يتعلق بأمور الدين . . يقول :

إن فقد البصر أشد ضررًا من فقد السمع ، وإذا صبر فاقده فله الجنة . . وقد كان فى الصحابة أضراء ، ولم يكن فيهم أطروش . . والمعافى من عافاه الله منهما ومتعه بسمعه وبصره ، وجعلهما الوارثين منه .

* *

* والهواء حياة الأحياء ، وناقل الصوت ، ومعبر الكلام إلى السامع ، فما قيمة الهواء ؟ وما هو ؟ يقول : عن (الهواء) وما فيه من المصالح : هو حياة الأبدان ، وتطرد الأصوات فتحملها وتؤديها كالرسول الحامل للبريد والأخبار ، وصلاح حياة الحيوان والنبات ، وحامل المطر كالراوية ، ويتفرق فى الجو حتى لا ينزل المطر جملة فيكون مهلكًا ، ويلقح الشجر والنبات حتى لا تكون عقيمًا ، وتسير السفن ، وتبرد الماء ، وتجفف المبتل ، وتضرم النار ، ولو ركدت لأنتن العالم ، وتلفت النفوس والنباتات ، واستشرى الوباء . . ولذا قال الرسول ﷺ فى الرياح : « إنها من روح الله تأتى بالرحمة » .

* ثم ينبهنا إلى لطيفة اللطائف فى هذا الهواء (مما يعنينا فى موضوعنا هذا) ، وهى :

أن الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام ، وليس نفس الاصطكاك ، كما قال ذلك من قاله ، ولكنه موجب الاصطكاك ، وقرع الجسم للجسم ، أو قلعه عنده ؛ فسببه قرع أو قلع ، فيحدث الصوت ، فيحمله الهواء ، ويؤديه إلى مسامع الناس ؛ فينتفعون به فى حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار ، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم .

فلو كان أثر هذه الحركات والأصوات يبقى فى الهواء ، كما يبقى الكتاب فى القرطاس لامتلأ العالم منه ، ولعظم الضرر به ، واشتدت مؤنته ، واحتاج الناس إلى محوه من الهواء ، والاستبدال به أعظم من حاجتهم إلى استبدال الكتاب المملوء كتابة ؛ فإن ما يلقى من الكلام فى الهواء قرطاس خفى ، يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ، ثم يمحى بإذن ربه ، فيعود جديدًا نقيًا لا شىء فيه ، فيحمل ما حمل كل وقت) .

* *

* وهذا وصف مبسط عند المحدثين لحرف من الحروف العربية ، يتبين منه كيف يتكون ، والمراحل التى مر بها ، حتى صار حقيقة تدرك ومعجزة تحققت مثلاً :

(حرف التاء) : وصفه علماء الأصوات بأنه : حرف مهموس ، شديد ، مستفل ، منفتح ، مصمت .

ويرجع همسه لعدم اهتزاز الأوتار الصوتية حال نطقه ؛ لانبساط فتحة المزمار ، واتساع مجرى الهواء .

كما أن شدته ترجع إلى حجزه الهواء خلفه حجزًا تامًا حال تقابل عضوى النطق ؛ وهما طرف اللسان وأصول الثنايا العليا .

وهو عند المحدثين انفجارى ؛ نظرًا لانطلاق الهواء بقوة حال انفصال هذين العضوين عن بعضهما .

ونظرًا لعدم ارتفاع اللسان به إلى أعلى كان مستفلاً ، ومنفتحًا .

ولما لم يعد ضمن حروف الخفة وهى (مر بنفل) كان مصمتًا .

ويتكون هذا الحرف مصاحبًا لهواء الرئتين ، فيمر بالقصبة الهوائية إلى أن يصل إلى الحنجرة فتنبسط فتحة المزمار ، ويبتعد الوتران الصوتيان عن بعضهما بما يسمح لمجرى الهواء بالاتساع ، مما ينجم عنه عدم الاهتزاز للأوتار

الصوتية ، ومن ثم عد هذا الحرف (مهموسًا) ، ثم يتابع الهواء سيره ، مارًا بالحلق فاللسان إلى أن يتصل طرفه بأصول الثنايا العليا اتصالاً محكمًا يمنع الهواء من التسرب ، ولذلك عدّ (شديدًا) ، وعندما ينفصل العضوان عن بعضهما ينطلق الهواء بقوة ، ولذا سمى (انفجاريًا) عند المحدثين ، ونظرًا لعدم ارتفاع اللسان به إلى أعلى كان (مستفلاً) و(منفتحًا) ، وهو مصمت لما سبق ، ونظرًا لغلبة الصفات الضعيفة عليه ، يعد من الحروف الضعيفة .

هذا ما قرره العلم الحديث لحدوث الصوت .. فما هو تصور ابن القيم فى هذا الجانب ؟

* *

يتصور ابن القيم ، حدوث الصوت اللغوى على النحو التالى ، يقول :

(.. ثم تأمل فى هذا الصوت الخارج من الحلق ، وتهيئة آلاته ، والكلام وانتظامه ، والحروف ومخارجها ، وأدواتها ومقاطعها وأجراسها .. تجد الحكمة الباهرة فى هواء ساذج يخرج من الجوف ، فيستهلك فى أنبوبة الحنجرة حتى ينتهى إلى الحلق واللسان والشفتين والأسنان ، فيحدث له هناك مقاطع ، ونهايات وأجراس ، يسمع له عند كل مقطع ونهاية كل جرس مبين منفصل عن الآخر ، يحدث بسببه الحرف :

فهو صوت واحد ساذج يجرى فى قصبة واحدة ، حتى ينتهى إلى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفًا ، يدور عليها الكلام كله :: أمره ونهيه ، وخبره واستخباره ، ونظمه ونثره ، وخطبه ومواعظه وفضوله .. ومنه الكلمة التى لا يلقى لها بالاً صاحبها فيهوى بها فى النار .. والكلمة التى لا يلقى لها بالاً صاحبها يركض بها فى أعلى الجنان ، فى جوار رب العالمين ، فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج ، يخرج من الصدر ، لا يدرى ما يراد به ، ولا أين ينتهى ، ولا أين مستقره .

هذا إلى ما فى ذلك من اختلاف الألسنة واللغات ، التى لا يحصيها إلا الله

. . واللسان الذى هو الجارحة واحد فى الشكل والمنظر ، وكذلك الحلق والأضراس والشفتان ، والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت . . .) .

* *

وعن تركيب آلات الكلام وعملها ، ومخارج الحروف وصفاتها . . يحدثنا بما لايبعد عن الذى قرره علماء الأصوات حديثًا ، يقول :

(فانظر الآن فى الحنجرة ، كيف هى كالأنبوب لخروج الصوت ، واللسان والشفتان والأسنان لصياغة الحروف والنغمات ، ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم الحروف التى تخرج منها ومن اللسان ، ومن سقطت شفته كيف لم يقم اللام والراء ، ومن عرضت له آفة فى حلقه كيف لم يتمكن من الحروف الحلقية !!

وقد شبه أصحاب التشريح مخرج الصوت بالمزمار ، والرئة بالزق الذى ينفخ فيه من تحته ، ليدخل الريح فيه والفضلات التى تقبض على الرئة ليخرج الصوت من الحنجرة بالأكف التى تقبض على الزق ، حتى يخرج الهواء فى القصبة والشفتين والأسنان التى تصوغ الصوت حروفًا ونغمًا بالأصابع التى تختلف على المزمار فتصوغه ألحانًا ، والمقاطع التى ينتهى إليها الصوت بالأبخاش التى فى القصبة ، حتى قيل : إن المزمار إنما اتخذ على مثل ذلك من الإنسان .

فإذا تعجب من الصناعة التى تعملها أكف الناس ، حتى تخرج منها تلك الأصوات . . فما أحراك بطول التعجب من الصناعة الإلهية التى أخرجت تلك الحروف والأصوات من اللحم والدم والعروق والعظام ! ويا بعد ما بينهما !

ولكن المألوف المعتاد لا يقع عند النفوس موقع التعجب ، فإذا رأت ما لا نسبة له إليه أصلاً إلا أنه غريب عندها . . تلقته بالتعجب وتسبيح الرب تعالى ، وعندها من آياته العجيبة ما هو أعظم من ذلك . . ما لا يدركه القياس.

* *

* ثم تأمل اختلاف هذه النغمات وتباين هذه الأصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والألسنة والشفاه والأسنان !! فمن الذى ميز بينها أتم تمييز مع تشابه محالها . . سوى الخلاق العليم) .

ومن الحروف تتألف الكلمات ، ومن الكلمات تعبير وبيان لمن رق طبعه ولطف حسه ، ومن البيان سر وروعة .

* *

وعن نعمة البيان وأقسامه ، ومراتب الوجود ، ومدح من انتفع بذلك ، وذم سواه . يقول :

ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين : البيان النطقى ، والبيان الخطى ، وقد اعتد بهما سبحانه فى جملة ما اعتد به من نعمه على العبد ، فى قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ منْ عَلَق * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ * الَّذِى عَلَّم بِالْقَلَمِ * عَلَّم الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .

فقد تضمنت الآيات على إيجازها مراتب الخلق والوجود .

من ذكر عموم الخلق ، وهو إعطاء الوجود الخارجى - ثم ذكر ثانيًا خصوص خلق الإنسان . . ثم ذكر ثالثًا : التعليم بالقلم ، الذى هو من أعظم نعمه على عباده ؛ إذ به خلود العلوم ، وثبات الحقوق ، وتعلم الوصايا ، والحفظ والضبط . . . إلخ . أ هـ .

(فالله) أعطى (الإنسان) الذهن الذى يعى به ، واللسان الذى يترجم به، والبنان الذى يخط به ، وهيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات . .

والتعليم بالقلم يستلزم مراتب الوجود الثلاثة ، والتى هى مسندة إليه سبحانه خلقاً وتعليمًا ، وهى :

---

(١) العلق : ١ - ٥

مرتبة الوجود الذهنى ، والوجود اللفظى ، والوجود الرسمى . . فمن فضله وكرمه ذكر تعليمين :

خاصًا ، وعامًا ، وكذلك خلقين : عامًا وخاصًا . .

وكذلك المتأمل فى قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (١) .

فالله سبحانه أعطى مراتب الوجود بأسرها :

الإيجاد الخارجى فى خلق الإنسان ، والوجود العلمى الذهنى فى تعليم القرآن .

وتعليم البيان يتناول البيان الذهنى ، الذى يميز فيه بين المعلومات . والبيان اللفظى الذى يعبر عن المعلومات ويترجمها .

والبيان الرسمى الخطىّ ، الذى ترسم به تلك الألفاظ فتبين معانيها للناظر إليها ، فهذا بيان للعين ، والثانى بيان للسمع ، والأول بيان للقلب .

ولذا جمع سبحانه بين الثلاثة فى مثل قوله : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (٢) . وقوله : ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) ويذم من عدم الانتفاع بها فى اكتساب الهدى ، والعلم النافع، كقوله : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ (٥) .

* *

ويذكر ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فى كتابه : « مذهب السلف القويم،

---

(١) الرحمن : ١ - ٤ (٢) الإسراء : ٣٦ (٣) النحل : ٧٨

(٤) البقرة : ١٨ (٥) البقرة : ٧

فى تحقيق مسألة كلام الله القديم » ، خلاصة لما سبق فى عبارة وجيزة ، بأن لكل شىء أربعة وجودات :

وجود خارجى هو الوجود فى الأعيان .

ووجود علمى هو الوجود فى الأذهان .

ووجود لفظى هو الوجود فى المنطق واللسان .

ووجود رسمى وهو الوجود فى الخط بالبنان .

ولكون تعليم الخط يستلزم غالبًا تعليم العبارة ، واللفظ المستلزم لتعليم العلم ، قال تعالى : ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ (١) .

وأطلق التعليم ، ثم خص ، فقال : ﴿ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) .

وأخيرًا يجب أن نعلم أن للعرب فضلاً كبيرًا فى هذه المباحث الطبيعية . انتفعت بها أوروبا إبان نهضتها . فالأجداد لم يقصروا فى حق الأبناء ولا فى تأدية رسالتهم ، وبقى دور الأحفاد .

* * *

(١) ، (٢) العلق : ٤ ، ٥